مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (27) – العدد (01) (جوان، 2026) -ص 99- 110
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

فلسفة التربية ودورها في مواجهة الغزو الفكري والحفاظ على العقيدة

The Philosophy of Islamic Education and Its Role in Confronting Intellectual Invasion and Preserving Faith

حملاوي مهتور[1]*، جامعة 20 أوت 1955-سكيكدة،
h.mehtour@univ-skikda.dz ,https://orcid.org/0000-0002-0834-5527

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	2026-06-02
2025-11-17		

ملخّص

يسعى هذا البحث إلى التعريف بفلسفة التربية بشكل عام، وبفلسفة التربية الإسلامية بشكل خاص مع إبراز أهميتها في صون العقيدة الصحيحة أمام موجات الغزو الفكري التي تهدد القيم والمبادئ الإسلامية. ويربط البحث بين هذا الغزو الفكري وضرورة اهتمام العلوم التربوية ببناء تصورات واضحة، وتحويلها إلى ممارسات عملية قادرة على تشكيل شخصية الإنسان وصياغة وعيه. وتعد فلسفة التربية من الفروع الجوهرية لهذه العلوم، إذ تسهم في تطبيق الرؤى النظرية والفكرية على المجال التربوي، مؤثرة في العملية التعليمية بمنطلقاتها حول الكون والمعرفة والقيم، مع التأكيد على البعد الإسلامي فيها.

وبالاعتماد على المنهج التحليلي، ينتهي البحث إلى أن الأمة العربية والإسلامية بحاجة إلى فلسفة تربوية أصيلة، مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، شاملة لمختلف جوانب الحياة، قادرة على إعداد جيل متوازن فكريًا، ثابت على عقيدته، ومؤهل لمواجهة التيارات والفلسفات الغربية، مع ضرورة إدماجها في المناهج التعليمية لتعزيز الهوية الدينية والثقافية لدى المتعلمين

الكلمات المفتاحية: علوم التربية؛ فلسفة التربية؛ الغزو الفكري؛ الأفكار الهدامة؛ العقيدة.

Abstract

This research aims to define the philosophy of education in general and Islamic educational philosophy in particular, highlighting their essential role in safeguarding true faith against intellectual invasions that promote destructive ideas. Educational sciences are responsible for shaping pedagogical frameworks and practices, while the philosophy of education applies theoretical insights to influence educational aims, values, and methods from an Islamic perspective.

Using the analytical method, the study concludes that the Arab-Islamic nation urgently needs an authentic educational philosophy derived from the Qur'an and Sunnah—one that forms an intellectually balanced generation firmly rooted in faith and capable of confronting diverse Western ideological currents. The study also stresses the importance of integrating Islamic educational philosophy into curricula to strengthen religious and cultural identity.

Keywords: Educational Sciences; Philosophy of Education; Intellectual Invasion; Destructive Ideas; Faith .

* المؤلف المراسل

مقدّمة

تحظى العلوم التربوية اليوم باهتمام القائمين على شؤون التربية والتعليم في شتى أنحاء العالم. ويعود هذا الاهتمام إلى تنوع المجالات التربوية وتداخلها نتيجة التحولات العلمية والتكنولوجية والحضارية غير المسبوقة التي يشهدها عالمنا المعاصر. وتبرز فلسفة التربية كأحد فروع هذه العلوم، إذ صنفها عالم التربية الفرنسي غاستون ميالاري (G. Mialaret) (1918-2016) ضمن العلوم التربوية الأساسية، لما لها من دور في صياغة المفاهيم التربوية وتوجيه الممارسات التعليمية.

ويكتسي الحديث عن فلسفة التربية أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين، لارتباطها الوثيق بالفكر والدين والعقيدة التي تمثل جوهر حياة المسلمين وأساس كينونتهم. فقد تعرضت العقيدة الإسلامية وما زالت لتحديات محاولات الطمس والتشويه من طرف بعض القوى الغربية التي اعتبرت الإسلام عدوًا منذ زمن طويل، وسعت للتأثير عليه عبر شتى الوسائل، بما فيها التربية والتعليم. ومن هنا تبرز ضرورة مواجهة هذا الغزو الفكري؛ عن طريق تحصين الفكر وترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس الناشئة، ليظلوا متمسكين بأصول دينهم صامدين أمام كل التحديات.

ويأتي اختيارنا هذا الموضوع انطلاقا من قناعتنا بأهمية الفلسفة عموما، وفلسفة التربية خصوصا في تشكيل الفرد والمجتمع، إذ تمتلك كل أمة منظومة من القيم والمعتقدات التي تسعى لصونها وترسيخها عبر مؤسساتها التربوية. ويهدف هذا البحث إلى التعريف بفلسفة التربية بعامة وبفلسفة التربية الإسلامية بخاصة، وبيان دورهما في حماية العقيدة ومواجهة الغزو الفكري الهادف إلى طمس الهوية. وتنطلق الدراسة من مجموعة تساؤلات مركزية، وهي: ما المقصود بفلسفة التربية؟ وما مفهوم الغزو الفكري؟ وما معنى العقيدة وما أثرها في تشكيل وعي الفرد والمجتمع؟ وما هو الدور الذي يمكن أن تنهض به فلسفة التربية في صون العقيدة والتصدي لمحاولات التشويه التي تستهدفها؟

وسنحاول الإجابة عن الأسئلة المطروحة؛ بالاعتماد على المنهج التحليلي، في ظل هذا الزخم الهائل من المفاهيم التي يتضمنها عنوان بحثنا، وبالاحتكام إلى خطة تستجيب لمسعانا المنهجي وهي الخطة التي اشتملت على مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

1- مفهوم فلسفة التربية

1.1- مفهوم الفلسفة

الفلسفة كلمة يونانية مكونة من لفظتين هما: فيلو "philo"، وتعني محبة، وسوفيا "Sophia"، وتعني الحكمة، وبذلك يكون معنى الفلسفة هو محبة الحكمة، ويقال إن الفيلسوف والرياضي اليوناني الشهير فيثاغورس (570- 497 ق.م) هو أول من استخدم لفظ "فلسفة"، حيث رفض أن يتسمى باسم الحكيم "Sophos"، وقال إن الحكمة لا يوصف بها إلا الآلهة، وأما هو فليس إلا فيلسوفا أو محبا للحكمة.

وقد تعددت تعريفات الفلسفة وتنوعت تبعا لتعدد المذاهب الفلسفية، وليس من شأننا أن نخوض هنا في هذه التعريفات، وفي هذا السياق، يرى الباحثون والفلاسفة منذ عهد أرسطو، وحتى

عصـرنا الحاضـر أن الحكمة التي يبتغيها الفيلسـوف تتجسـد في بعدين متكاملين: الحكمة النظرية والحكمة العملية، فالحكمة النظرية تنشأ من الانغماس في التأمل العميق والتفكر في حقيقة الوجود والكون بكليته، ومن اسـتكشـاف نظام الكون بدقة وتدقيق، وتأمل جماليات الأنماط الرياضـية ورصانتها، وصولا إلى التأمل فيما وراء الطبيعة مستنيرا بضوء أسمى الموجودات، وهو الوجود الإلهي ذاته. أما الحكمة العملية، فهي تجسـيد للفلسـفة في ميادين الحياة الإنسـانية اليومية، فهي تعنى بضـبط سـلوك الإنسـان في السـياسـة والأخلاق والاقتصـاد، وتوجيه أفعاله بما يحقق الصـالح العام، ويجمع بين المعرفة والعمل، بين النظر والتطبيق. (عبد المعطي محمد ، 2000، صفحة 21).

وقد انتشـر لفظ "محب الحكمة" في بلاد اليونان، وسـيطر تعريف أرسـطو للفلسـفة بوصـفها "العلم الكلي الشـامل" على الفكر الفلسـفي منذ العصـور القديمة وحتى العصـر الحديث، حيث بدأت العلوم تنفصـل تدريجيًا عن الفلسـفة، وبرزت فكرة التمييز بين الفلسـفة والعلم، وبين الفيلسـوف والعالم. ولم تعد الفلسـفة تُفهم كعلم أو معرفة يُمكن الإلمام بها بشـكل كامل، بل هي أسـلوب في النظر إلى المعرفة، وطريقة في التفكير، وموقف من الحياة. والفلسـفة، بهذا المعنى، غير منفصـلة عن الحياة، بل هي متصـلة بها، متفاعلة معها، لا تنقطع عن التأثر بها والتأثير فيها، بحيث يصـبح الاهتمام بالفلسفة، في جوهره، اهتمامًا بالحياة وبالوجود، وبالمصير الإنساني.

ولذلك، ليس من المبالغة القول إن الفلسـفة ضـرورية للإنسـان، فهي ترافقه في تجاربه الميتافيزيقية والمنطقية والأخلاقية والاجتماعية والسـياسـية، وتسـتوعب، من خلال نظرتها التأملية النقدية والشمولية، كل القضايا والمسائل والمشكلات المطروحة في حياته. وهي فضولية ومشاكسة وطموحة، لا تكف عن طرح الأسـئلة، التي تمثل أداتها في فتح آفاق المعرفة، والدعوة المسـتمرة إلى المراجعة والتأمل، سعياً لتحقيق الأفضل للفرد والمجتمع والأمة، وللبشرية جمعاء.

2.1- مفهوم التربية

التربية في اللغة من الفعل ربا، وعند العرب يقال: ربا الشـيءُ يربو ربوّا ورِباءً بمعنى زاد ونما، ويقال هذا لكل ما ينمي كالولد والزرع (ابن منظور، د.ت، صـفحة 392). ويتضـح لنا من ذلك أن للتربية معنيين أسـاسـيين؛ فهي من جهةٍ تدلّ على النمو والتطور، ومن جهةٍ أخرى تعبّر عن التدرّج والتراكم، مما يفيد أن العملية التربوية بطبيعتها مسارٌ تراكميّ متواصل لا يتحقق دفعةً واحدة (بكار، 2011، صفحة 11).

أما من الناحية الاصـطلاحية، فيمكن القول إنّ التربية تعدّ مسـارا منظما يهدف إلى التطوير والتحسـين والإتقان التدريجي لمهارة أو مجموعة من الوظائف عبر الممارسـة والتدريب. وهي في جوهرها، عملية إجرائية متواصلة يقوم من خلالها الراشدون، وفي مقدّمتهم الأهل بتدريب الصغار، وتشجيعهم، ومساعدتهم على تنمية ميول معينة واكتساب عادات وسلوكيات إيجابية (لالاند، 2011، صـفحة 323) ، وهنا تظهر التربية، على أنها ذلك الجهد المبذول الهادف إلى مسـاعدة الإنسـان على اكتشـاف قدراته واسـتعداداته، وصـقل مواهبه وميوله، وتنميتها في الاتجاه الذي يحقق له وللمجتمع الخير والمنفعة. فهي عملية تهدف إلى إحداث تغييرات إيجابية في سـلوك الفرد، روحيا واجتماعيا، وإعداده للاندماج في الحياة الاجتماعية بصورة ناجحة وفاعلة (الشيباني، 1988، صفحة 71).

إنّ التربية عملية شاملة ومتكاملة تشمل مختلف أوجه النشاط الإنساني التي تمكّن الفرد من التأهّل للعيش داخل المجتمع. فالإنسان لا يُولد إنسانًا بالمعنى الكامل، وهذه حقيقة أجمعت عليها العلوم الإنسانية الحديثة؛ إذ إنّ ما يشكّل جوهر الإنسانية - من لغةٍ وفكرٍ وشاعرٍ وفنٍّ وأخلاقٍ - لا يُورث بالفطرة، بل يُكتسب عبر التربية. ومن ثمّ، يمكن القول إنّ الإنسان لا يكون على ما هو عليه إلا بفضل العملية التربوية التي تُسهم في تكوينه الإنساني وتنميته الثقافية والاجتماعية (ربول، 1982، صفحة 50).

فالتربية إطار شامل ينسجم مع مختلف أوجه النشاط الإنساني، ويُؤهل الفرد للعيش الفاعل داخل المجتمع. فالإنسان لا يولد مكتمل الإنسانية، بل يُكتسب جوهره ــ من لغة وفكر ومشاعر وفن وأخلاق ــ عبر الخبرات التربوية التي تمنحه القدرة على الفهم الثقافي والممارسة الأخلاقية والتفاعل الاجتماعي. ومن هذا المنطلق، تتجلّى أهمية التربية كوسيلة تحويلية تُنمّي إمكانات الفرد، وتُعزز تكوينه الإنساني وتنميته الثقافية والاجتماعية.

وتعدّ التربية، بما هي جهد تراكمي متواصل، ضرورة أساسية للحفاظ على التراث الثقافي، ونقله إلى الأجيال الجديدة. فهي لا تقتصر على عملية النقل فحسب، بل تسعى أيضا إلى تجديد هذا التراث وتنقيته من شوائبه ونقائصه، مع الحرص على صون أصوله ومقوّماته الأصيلة وتعزيز قيمه الإيجابية (قحوان، 2016، صفحة 60) .

ومن هنا يتّضح لنا، أن التربية ليست مجرد نشاط تعليمي أو تدريبي محدود، بل هي عملية إنسانية متكاملة ومتواصلة تسعى إلى بناء الفرد وتشكيل وعيه وتنمية قدراته، بما يؤهله للاندماج الإيجابي في مجتمعه. فهي في جوهرها فعل ثقافي وتاريخي يسهم في تحقيق التطور الإنساني وصون الهوية الجماعية وضمان استمرارية القيم الحضارية عبر الأجيال.

ولا يبقى لنا في هذا المقام إلا أن نبيّن أنّ فلسفة التربية، بما هي مفهوم مركّب، تستمد جوهرها من الفلسفة التي تُعد رؤية كليّة للحياة ونسقا موجها للقيم والسلوك. غير أن الفيلسوف التربوي، وإن شارك الفيلسوف العام أفق المهمة، يوجّه نظره إلى المجال التربوي، فيعمل على تأصيل مفاهيمه، واستجلاء أسسه الفكرية والقيمية، وتحليل إشكالاته للكشف عن عللها ومسالك معالجتها. ومن ثمّ يُنظر إليه بوصفه من يوظّف المنهج الفلسفي في فهم الظواهر التربوية وصوغ رؤى عملية بشأنها. وتنبع الصلة العميقة بين الفلسفة العامة والفلسفة التربوية من كون هذه الأخيرة تجسيدا عمليا للنظرة الفلسفية ومنهجها في الفضاء التربوي (الشيباني، 1988، صفحة 14، 16).

ولكي تكون الأمور واضحة أكثر بشأن فلسفة التربية، نقول بأنها ذلك الفرع من الفلسفة الذي يتناول بالدراسة والتأمل المبادئ والأفكار التي تقوم عليها العملية التربوية في أهدافها ووسائلها ومضامينها. فهي تسعى إلى تحليل الأسس القيمية والمعرفية والاجتماعية للتربية وتحديد غاياتها في ضوء تصوّر شامل للإنسان والمجتمع والحياة. كما تُعد فلسفة مصطلح " الغزو الفكري"، والمقصود به بشكل عام إغارة الأعداء على أمة من الأمم بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتدمير قواها الداخلية ومقوماتها، وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة حيث إن كلمة "الغزو"

استعملت بمعنى الإغارة للاعتداء والنهب، ولكن عن طريق الفكر وتدمير القوى المفكرة في الأمة المغزوة، وما يصحب ذلك من تخريب وسيطرة (السايح، د.ت، الصفحات 9-10) .

إن مفهوم الغزو في بعده اللغوي يشير إذن إلى الهجوم والقصد للقتال والتغلب، وقد ارتبط تاريخيا بالمواجهات العسكرية التي تقوم على القوة والسلاح. ومع تطور المجتمعات وتبدّل أدوات الصراع، انتقل مدلول الكلمة من المجال المادي إلى المجال الرمزي، ويكشف هذا التحوّل عن انتقال جوهر الصراع من السيطرة المادية إلى الهيمنة الفكرية والثقافية، وهو ما يجعل هذا النوع من الغزو أكثر عمقا وخطورة، لأنه يعمل على زعزعة الوعي الجمعي وإضعاف مقومات الصمود الداخلي للأمة.

ولعلّ ما حدث في احتفالات مرور مئة عام على الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1930م يقدّم مثالًا واضحا على ذلك، حيث عبّر الساسة الفرنسيون عن قناعتهم بأن سرّ قوة الجزائريين يكمن في تمسّكهم بالقرآن الكريم ولغتهم العربية، ورأوا أن إحكام السيطرة عليهم يمرّ عبر طمس هويتهم الدينية واللغوية. فقد أرادوا من تلك المهرجانات أن تكون رمزًا لنهاية الإسلام في الجزائر، لا مجرد إحياء لقرن من الوجود الاستعماري (عمارة، 2009، صفحة 42).

وهكذا فإن التجربة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر؛ تكشف عن مشروع أيديولوجي هدفه إعادة تشكيل وعي المجتمع وهويته، عبر استهداف القرآن واللغة العربية باعتبارهما مصدر قوة الجزائريين. فجاءت سياسات التعليم والثقافة أداة لحرب ثقافية معلنة، تجلّت بوضوح في احتفالات 1930م. غير أن هذه المحاولات أدّت إلى يقظة وطنية ودينية عمّقت ارتباط الجزائريين بدينهم ولغتهم ووجودهم.

2.2- خطر الغزو الفكري على العقيدة

إنّ الإساءة إلى الإسلام عقيدةً، وإلى المسلمين أمة ليست ظاهرة مستحدثة، بل تمتد جذورها إلى عصور سابقة. ويمكن القول إن بداياتها الحقيقية ارتبطت بظهور الاستشراق في مراحله الأولى ولا سيما عقب الحروب الصليبية، حين نشأ الاحتكاك المباشر بين الشرق والغرب، فانبثق عنه خطاب عدائي اتّسم بالتهجّم الصريح على كل ما يمتّ بصلة إلى الإسلام وثقافته وأهله (يعقوب عبد النبي، 2017، صفحة 91،92).

وإذا كان بعض المستشرقين قد لجأوا إلى أسلوب صريح ومباشرٍ في الافتراء على الإسلام، من خلال تشويه حقائقه والطعن في رموزه ومقدساته، فإن فئةً أخرى منهم اختارت نهجًا أكثر مكرًا، إذ غلّفت طعونها بعبارات المديح والثناء للإسلام ونبيّه الكريم. ومن أبرز هؤلاء توماس كارليل (Thomas Carlyle) (18811795–) الذي انتهج أسلوبا غير مباشر في تمرير افتراءاته على شخصية الرسول صلى اللّه عليه وسلم متوسّلا بما يمكن تسميته بمنهج البناء والهدم. ففي مرحلة البناء، يعمد كارليل إلى رسم صورة مثالية للرسول صلى اللّه عليه وسلم، فيصفه بالبطل، ويُطنب في الحديث عن صدقه ونبله وسموّ خلقه، مما يوهم القارئ بموضوعيته وإنصافه. غير أنّه، في مرحلة الهدم، ينقلب على تلك الصورة ليُدرج أفكارا متناقضة وهادفة إلى النيل من العقيدة الإسلامية وتشويه جوهر الرسالة المحمدية، فيكشف بذلك عن تناقضٍ منهجي بين ظاهره المتحلي بالإنصاف وباطنه القائم على التحامل والتشويه.

وتظهر مرحلة الهدم في منهج كارليل في عدم اعترافه بالوحي الإلهي (القرآن)، وبنبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم، فقد اعتبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم مجرد بطل مثل سائر الأبطال (الجندي، 1981، صفحة 206)، وأكّد بأن القرآن هو كلام محمد صلى اللّه عليه، وهو يعتبر القرآن بمثابة تخمر مبهم لنفس إنسانية كبيرة وساذجة، ولكنها نفس جادة، وتفيض حماسا، وتسعى سعيا جبارا لكي تعبّر عن ذاتها في كلمات، وقد ظهر منهج البناء والهدم أيضا في كتاب "حضارة العرب" للمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) (1841-1931)، الذي ترجم إلى العربية وفيه يشيد لوبون بما حققه الإسلام من مكاسب للعرب في الجزيرة العربية، وكيف أنه قد رد للمرأة اعتبارها وكيانها، ثم وسط هذا "البناء" نجد معاول "الهدم" تجاه القرآن الكريم، فيرى أنه من تأليف محمد، بل يهدم شخصية محمد صلى اللّه عليه وسلم كرسول ونبي، فيرميه بالهوس والجنون ويتهمه بالصرع، ويدعي بأن أميته قد كانت سببا في التناقضات الموجودة في القرآن (زقزوق، د.ت، صفحة 5).

وقد شهدت المجتمعات الإسلامية في عصر الانفتاح المعلوماتي؛ غزوا فكريا غربيا عملت مناهج التعليم ووسائل الإعلام على ترسيخه، مروّجة لفكرة أن التقدم لا يتحقق إلا بتبنّي القيم والفلسفات الغربية، وقد تأثر بعض المفكرين والمربين بهذا الاتجاه، فانتقلت إلى المناهج رؤى مستمدة من تيارات كالعلمانية والبراغماتية والماركسية والوجودية وغيرها. وهكذا لم يكن الغزو الفكري مجرد نقل للمعرفة، بل محاولة لإعادة تشكيل الوعي الثقافي، مما يجعل من التربية مسؤولا أساسيا عن حماية الهوية وصون الأصالة الفكرية والقيمية.

وفي سياق الغزو الفكري الغربي، برزت فلسفات تميل إلى الإلحاد، وتنكر الحقائق الغيبية والمعجزات معتبرة إياها غير قابلة للتحقق التجريبي. ومن أبرز الأمثلة المستشرق الفرنسي أرنست رينان الذي تحوّل من كاهن كاثوليكي مخلص إلى ناقد للدين، وبخاصة الإسلام، معتمداً المنهج العلمي النقدي في دراسة التاريخ الديني، ورافضاً كل ما يتجاوز التفسير الطبيعي والإثبات العلمي.

ومن هنا ينبع رفض رينان للمعجزات معتبرا إياها أمورا مستحيلة لا يمكن إثباتها أو إدراكها حسيا وتجريبيا، وهو يرى أن مصدر المعرفة الحقيقي هو الطبيعة والتاريخ، ويجعل من العلم بديلا للدين. والمقصود بالعلم عنده علم التاريخ وفقه اللغات، مع التركيز على الإنسان وما يمكنه إنجازه. وقد صرح بأن دين المستقبل سيكون النزعة الإنسانية، أي عبادة الإنسان وتقديس الحياة، ما يضع المنظور التربوي والثقافي أمام تحد لمواجهة الفكر الإلحادي مع صون القيم الروحية والأخلاقية (الخشت، د.ت، صفحة 25).

3- مفهوم العقيدة وأثرها على الفرد والمجتمع

1.3- مفهوم العقيدة

العقيدة في اللغة من العقد، وهو نقيض الحل، وهو يدل على الشدة والوثوق، ومنه: عقد الشيء يعقده عقدا وانعقد وتعقد، والمعاقد هي مواضع العقد، والعقدة: القلادة، والعقد: الخيط ينظم فيه الخرز وجمعه عقود، ويقال: اعتقد الدر والخرز وغيره: إذا اتخذ منه عقدا، وعقدت الحبل أعقده

عقدا وقد انعقد، ومعقد الحبل مثل مجلس، وهو موضع عقده يقال له: عقدة، وجمعها عقد لأنها تمسكه وتوثقه (ابن منظور، 1999، صفحة 309).

وتطلق العقيدة على الأمر الذي يعتقده الإنسان، واعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة ما يدين الإنسان به وله عقيدة حسنة سالمة من الشك واعتقد كذا بقلبه: أي صار له عقيدة، لأنه لما كان العقد لغة: هو الجمع بين أطراف الشيء، فكأن المعتقد قد جمع أطراف قلبه وعقد ضميره على معتقده فاحكم وثاقه بالأدلة القاطعة لديه، والبراهين التي قامت على معتقده حتى يكون لانعقاد القلب عليه أثر ظاهر من الإذعان والخضوع له فأشبهت العقيدة: العهد المشدود والعروة الوثقى لاستقرارها في القلب ورسوخها في الأعماق (المقري، 1926، صفحة 575) .

أما العقيدة شرعا، فهي ما يدين به الإنسان ربه وجمعها عقائد: والعقيدة الإسلامية مجموعة الأمور الدينية التي يجب على المسلم ان يصدق بها قلبه، وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقينا عنده لا يخالطه الشك أو الريب، ودليل ذلك قوله تعالى: [إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه أولئك هم الصادقون] (سورة الحجرات، الآية 15)، والعقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي سلم أصلها من التحريف والتزييف، يقول تعالى: [إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحلفظون] (سورة الحجر، الآية 9).

وتُعَدّ شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، الكلمة الجامعة لمضمون العقيدة الإسلامية؛ فهي تمثل الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الإيمان، والمعيار الفاصل بين الكفر والإيمان. وتتجلى هذه الشهادة في الممارسة التعبدية للمسلمين من خلال تكرارها في الصلوات كما كانت محور دعوة النبي صلى اللّه عليه وسلم والدعوة التي بُعث بها جميع المرسلين من قبله.

وتشمل العقيدة الإسلامية في جوهرها الإيمان برسالة النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم باعتباره رسول اللّه المبعوث لهداية الإنسانية، سواء من خلال ما تضمنه القرآن الكريم من توجيهات وتشريعات، أو من خلال ما أوحاه اللّه إليه من سنن وأحكام مبيّنة لمقاصد الشريعة. ويستلزم هذا الإيمان تصديق النبي صلى اللّه عليه وسلم في كل ما بلّغه عن ربه، والالتزام العملي بما ورد في تعاليمه من أوامر ونواهٍ.

وينبثق عن هذا الإيمان أداء الفرائض التعبدية كالصلاة والزكاة والصيام والحج، إدراكًا لأركانها ومعانيها ومقاصدها، ومن ذلك الوقوف بعرفة بوصفه ركنًا أساسا من أركان الحج. كما يقتضي الإيمان بالعقيدة الإسلامية التسليم بأحكام اللّه القطعية في تحريم الربا والخمر والميسر والزنا، والإقرار بما ورد في القرآن الكريم من عقوبات لهذه المحرمات. وبناءً على ذلك، فإن إنكار أيٍّ من الأحكام القطعية الثابتة في النص القرآني يُعدّ خروجًا عن دائرة الإيمان (أبو زهرة، د.ت، الصفحات 7-11).

2.3- أثر العقيدة على الفرد والمجتمع

إن للعقيدة التي يحملها الإنسان أثرا بليغا في توجيه تصرفاته، وأن أي انحراف في هذه العقيدة يظهر واضحا في حياة الإنسان العملية والخلقية، كما أنه يؤثر بشكل ملموس في حياة

المجتمع، وكل عقيدة يحملها الفرد وتدين بها الأمة، صحيحة كانت أو باطلة لا يقتصر أثرها على الناحية الفكرية استقامة وانحرافا، هدى وضلالا، وإنما يمتد أثر هذه العقيدة إلى جوانب الحياة المختلفة، ومن هنا جاءت ضرورة المحافظة على العقيدة الصحيحة، لأنها بمثابة الغذاء الروحي الضروري لسير الفرد والمجتمع في طريق التقدم والرقي الحضاري.

وكما تؤثر العقيدة في سلوك الفرد، فإنها تؤثر أيضا في المجتمع؛ لأن الأفراد هم أساس المجتمع فصلاحهم يعني صلاحه وفسادهم يعني فساده، وكل جهد لتربية الفرد الصالح على العقيدة، هو جهد أصيل لتكوين المجتمع الصالح لما يوجد من علاقة وثيقة بين الفرد والمجتمع.

وبمقدار تمسك الأمة وأفرادها بالعقيدة الصحيحة؛ بمقدار ما يكتب لهذه الأمة الاستمرار والمحافظة على شخصيتها المستقلة؛ دون التلاشي والذوبان في ثقافات الأمم الأخرى، ولا وجود لعقيدة تحرر الإنسان من الشرك والعبودية لغير الله كالعقيدة الإسلامية، لأنها عقيدة تصدر عن الله أولا، ولأنها تسيطر على جميع مجالات الحياة، وعلى النفس الإنسانية بقوة أكثر من قوة القانون وسلطته.

إن الدين يشكّل عامل توحيد وقوة، فهو ظاهرة كونية تستحوذ على التفكير والوعي الإنساني وترافق الإنسان عبر مسيرته الحضارية؛ وهذه حقيقة يبرزها مالك بن نبي في تحليله لظاهرة الدين في كتابه "الظاهرة القرآنية"، إذ يشير إلى أنّ الغوص في التاريخ البشري، سواء في أزهى عصور الحضارة أو في بدايات تطوره الاجتماعي، يكشف دائماً عن حضور الفكرة الدينية وأثرها البالغ في تشكيل وعي الإنسان، (بن نبي، 1987، صفحة 69).

فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، من المستحيل لأي حضارة أن تبقى قائمة وتحافظ على استمرارها؛ دون وجود عقيدة أو رؤية أساسية تُفسر الكون والحياة والإنسان. (الرشيدي، 2008، صفحة 27). وقد أكدت وقائع التاريخ وحوادث الزمان؛ أن الناس لا يقادون إلا بالدين، ولا يضحّون إلا في سبيل العقيدة فهذه الأخيرة تحفّز على فعل الخير وتحذّر من فعل الشر، وتحث على تحمّل المصاعب والمشاق في سبيل ذلك (علي، 1999، صفحة 28).

إن للعقيدة الصحيحة مكانتها العظمى في إصلاح حياة الناس، ونشر الطمأنينة والاستقرار في جوانب النفس وفي ربوع الأرض. ولما كانت العقيدة تتعرض دائما إلى هجوم مستمر من أعداء الله على مدى الأيام حتى أثرت هذه الهجمات على كثير من الشباب في مختلف أقطار العالم الإسلامي؛ فأضعفت العقيدة في نفوسهم، وظهر ذلك بكل وضوح في تأثر الشباب بالأفكار العبثية والهدامة، وانحرافهم إلى الاقتداء بالغرب والارتواء من عقائده الفاسدة، تلك التي تسربت عبر بوابة الغزو الفكري الغربي.

4- فلسفة التربية الإسلامية ودورها في التصدي للغزو الفكري والحفاظ على العقيدة الصحيحة

1.4- مفهوم فلسفة التربية الإسلامية

إن الفلسفة التربوية، وكما سبق أن أشرنا في المبحث الأول؛ لا تعدو أن تكون تطبيقا للنظرة الفلسفية والطريقة الفلسفية في ميدان التربية، وبناء فلسفة تربوية للتعليم تعني تحديد المبادئ والمعتقدات والفروض، والمسلمات التي نؤمن بها، ونرغب أن تكون أساسا نقيم عليه أهدافنا

وسياساتنا ومناهجنا وطرائقنا التعليمية، ونعالج في ضوئه مشكلاتنا، وفلسفة التربية بهذا المعنى يجعلها صالحة للتطبيق على أي نوع من أنواع التربية، بما في ذلك التربية الإسلامية التي تستند إلى فلسفة تستمد مبادئها من تعاليم الإسلام وتتفق مع روحه.

والفلسفة الإسلامية ترتبط أساسا بالإسلام وتعاليمه، ولها نظرتها الخاصة عن اللّه والكون والإنسان، فاللّه من منظور فلاسفة المسلمين واحد لا شريك له، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يرعى هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه برحمته وعنايته وحكمته، وهو الكمال المطلق، والإنسان كائن مركب من جسد وروح، وعقل وعاطفة وأحاسيس ومشاعر، وهو يولد على الفطرة ثم تتفاعل قابليته وميوله واستعداداته وقدراته مع المجتمع الذي يعيش فيه فيكتسب ويتشرب من مجتمعه وبيئته، وهو حر مختار (بدران و محفوظ، 2005، الصفحات 329-331).

وتتميز فلسفة التربية الإسلامية بكونها ربانية المصدر، تنطلق من الوحي الإلهي لا من اجتهادات بشرية محضة. كما تتسم بشمولية النظر، إذ تشمل الجوانب العقلية، والروحية، والأخلاقية، والجسدية والاجتماعية، وتركز على الغاية الأخروية، مع السعي لإعداد الإنسان لسعادة الدنيا والآخرة. ومن أبرز خصائصها أيضًا التكامل بين النظرية والتطبيق، بحيث تكون المبادئ التربوية فيها مرتبطة بالواقع العملي، مما يجعلها فلسفة قابلة للتطبيق في حياة الإنسان اليومية.

وينفرد الإسلام بموقفه المتميز من طبيعة الإنسان، حيث يتجاوز مفهوم التربية فيه أي رؤية أخرى، إذ تمنح التربية والتعليم والمعرفة مكانة رفيعة، وتترسخ فيها الإنسانية الحقة القائمة على الوسطية والاعتدال فالفكر الإسلامي يتسع لكل التيارات الفكرية (المثالية، الواقعية، الوجودية، البراغماتية) لأنه يعالج الإنسان ككائن متعدد الأبعاد. وفي فلسفة التربية الإسلامية، يلتقي الفكر والمادة في وحدة متكاملة، فالعقل، جوهر الإنسان، يلعب دوراً محورياً في تشكيل شخصيته، مع إبقاء العلاقة بين الفكر والمادة تفاعلية ومتوازنة يقول تعالى: [ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] (سورة الإسراء، الآية 70).

وينبغي للعلاقة التفاعلية بين الجانبين المادي والروحي؛ أن تنعكس على المستوى التربوي، حيث تنصرف عناية المربي إلى تهذيب النفس وتزيينها بالفضائل والخصال الحميدة، لأن النفس هي الأساس وليس الجسم، يقول عز وجل: [ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها] (سورة الشمس الآيات 7، 8، 9).

ويتطلب التكامل بين الجانبين المادي والروحي في التربية؛ أن يركز المربي على تهذيب النفس وغرس الفضائل والخصال الحميدة، إذ إن نجاح الإنسان واستقامة سلوكه تقوم على تطهير النفس وتوجيهها، كما جاء في القرآن الكريم: [ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دساها] (سورة الشمس الآيات 7-10)، مما يؤكد أن التربية الحقة تتجاوز الاهتمام بالجسد لتستهدف بناء الإنسان الكامل روحا وأخلاقا.

وفلسفة التربية في القرآن والسنة؛ هي جزء من فلسفة الإسلام الكلية عن الإنسان والكون والحياة، فقد خلق اللّه الإنسان ليكون خليفته في الأرض، لذلك وازنت فلسفة التربية الإسلامية بين حاجات المتعلم الروحية والمادية والاجتماعية.

إن فلسفة التربية في القرآن والسنة تعكس رؤية شاملة للإنسان وعلاقته بالكون والحياة، إذ إن خلق اللّه الإنسان ليكون خليفته في الأرض يفرض موازنة بين مختلف أبعاد وجوده. ومن هنا، توازن فلسفة التربية الإسلامية بين حاجات المتعلم الروحية والمادية والاجتماعية، بما يحقق له السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، كما جاء في قول اللّه تعالى: [وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا] (القصص الآية77) مما يؤكد أن التربية الإسلامية تهدف إلى بناء الإنسان المتكامل القادر على التفاعل الإيجابي مع ذاته ومجتمعه.

2 .4 - دور فلسفة التربية في التصدي للغزو الفكري والحفاظ على العقيدة الصحيحة

تلعب فلسفة التربية دورا مهما في حياة الفرد والمجتمع، ذلك أنها ترتبط بمصير الأطفال الذين يتلقون التربية، وبالتالي بمصير المجتمع والإنسانية المقبلة، وإذا كان الإنسان مدينا بما هو عليه للتربية، فلا غرابة في أن نتساءل عن قيمة هذه الأخيرة وإمكاناتها وحدودها، أي أن تكون لنا فلسفة تربوية خاصة بنا (الشيباني، 1988، صفحة 7) .

وفلسفة التربية هي الإطار الفكري الذي يوجّه العملية التربوية ويمنحها بعدا إنسانيا وحضاريا، محددا غايات التعليم، وموصلا بين تنمية الفرد وتقدّم المجتمع. فهي تتجاوز الإرشاد إلى مساءلة القيم المؤسسة للممارسات التربوية ومدى توافقها مع التحولات الاجتماعية والثقافية، لتصبح أداة نقدية لبناء مناهج قادرة على إعداد إنسان حر ومسؤول. وتنشأ الحاجة إليها من ضرورة بلورة رؤية تربوية متجذرة في خصوصيتنا الثقافية والحضارية، مع الاستفادة من منجزات الفكر الإنساني المعاصر لتحقيق نهضة متوازنة ومبدعة.

ولذلك فإن تحديد فلسفة تربوية واضحة لنظامنا التعليمي؛ من شأنه أن يمنحه طابعا أصيلا وشخصية مميزة تنسجم مع مبادئ ديننا وقيم أمتنا العربية الإسلامية، ومع ثقافتنا وسياقاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فضلًا عن متطلبات العصر. ويسهم هذا التحديد في إضفاء عمق فكري على التعليم، مستمد من تراثنا الإسلامي الغني بمصادره المتنوعة من قرآن وسنة وإجماع وقياس واجتهادات العلماء عبر العصور. ومن خلال هذا التراث يتكوّن تصور شامل للكون والإنسان والمجتمع والمعرفة والأخلاق، وهو تصور قد لا تقدمه الفلسفات الوضعية القديمة والحديثة بالقدر نفسه من الشمول والاتساق (الشيباني، 1988، الصفحات 22-24) .

وتتأكد الحاجة إلى تحديد فلسفة تربوية أصيلة؛ حين ندرك أن تجارب الاقتباس من الفلسفات الغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أثبتت محدوديتها، وأسهمت في اضطراب التعليم، ثم جاء الاستعمار ليعمّق هذا الاضطراب عبر تشويه المناهج وإقصاء القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي، مما أفرز أجيالًا مادية النزعة مهزوزة العقيدة؛ وهو ما كان المستعمر يسعى إليه من خلال جعل التعليم أداة فعالة للغزو الفكري وإعادة تشكيل الوعي وفق أنماط غربية. وفي مواجهة ذلك، تبرز فلسفة التربية الإسلامية بوصفها حصنًا معرفيًا وروحيًا يحمي العقيدة ويصون الهوية، إذ ترسخ منظومة قيمية مستمدة من الوحي والعقل، وتبني شخصية واعية قادرة على التمييز بين الأصيل والدخيل، وتنمّي تفكيرًا نقديًا منضبطًا يوازن بين الانفتاح على العصر والثبات على مبادئ الدين.

خاتمة

والذي يمكننا استنتاجه والتأكيد عليه في الختام؛ هو حاجة الأمة العربية الإسلامية إلى فلسفة تربوية أصيلة ومتميزة مستمدة من القرآن والسنة، فلسفة تربوية شاملة لشتى جوانب الحياة، وقادرة على تكوين جيل متمسك بعقيدته، وقادر على مواجهة التيارات والفلسفات الغربية؛ باتجاهاتها المختلفة من مثالية وبراغماتية ووجودية وطبيعية وغيرها، والحذر من تطبيقاتها ومناهجها التربوية التي تمارس من خلالها عملية التشويش على المنظومات التربوية للمجتمعات العربية والإسلامية؛ قصد تشويه عقيدتها وطمس معالمها؛ خاصة في ظل الانفتاح الثقافي الذي يشهده العالم في ظل العولمة الذي تصبح فيه الخصوصية والهوية العقائدية مهددة بالتلاشي والضياع والتقليد للغرب.

وعندما نتحدث عن ضرورة العودة إلى الإسلام؛ فإننا لا نعني بذلك مجرد العودة إلى تراث ماض ينبغي الحفاظ عليه، بل العودة التي نقصدها هي تلك التي تعيدنا إلى المنبع الصافي، والمصدر الحيوي والفاعل والمؤثر والمتجدد والقادر على مواكبة التطورات والمستجدات الحاصلة، ذلك أن القرآن الذي جاء به الإسلام هو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه، وهو يمتلك من المرونة في قواعده العامة المتعلقة بتنظيم الحياة البشرية ما يجعله صالحا لكل زمان ومكان، وعلى ضوء التمسك بهذا المصدر يتم ربط الماضي بالحاضر ورسم معالم المستقبل، والتأصيل لفكرنا الفلسفي والتربوي، وتأكيد شخصيتنا التربوية والثقافية، وتحصين عقول أبنائنا ضد أخطار الغزو الفكري وأفكاره المسمومة والهدامة.

إن القضية المطروحة اليوم هي قضية كينونة، وأصل، وهوية فلسفية وتربوية وعقائدية، وهذه كلها ينبغي العمل على صياغتها صياغة دقيقة، وأصيلة من داخل ثقافتنا العربية الإسلامية؛ برؤية عصرية متفتحة وحذرة تستوعب أبعاد الإنسان المادية والعقلية، والروحية والنفسية، والاجتماعية.

قائمة المراجع

- أحمد المقري. (1926). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج1و2، ط6. القاهرة: المطبعة الأميرية.
- اسماعيل علي. (1999). الغزو الفكري في وسائل ثقافة الطفل المسلم (مظاهره وآثاره)، دار الكلمة، مصر، ط1. مصر: دار الكلمة.
- أندريه لالاند. (2011). موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد الأول. بيروت: منشورات عويدات.
- أنور الجندي. (1981). قضايا العصر ومشكلات الفكر في ضوء الإسلام. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- أوليفي ربول. (1982). فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان . بيروت، باريس: منشورات عويدات.
- رشدي أبو شبانة على الرشيدي. (2008). الصراع الحضاري بين الشرق والغرب. المنصورة: دار اليقين.
- عبد الرحيم السايح. (د.ت). مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية. مصر: مركز الكتاب للنشر.
- عبد الكريم بكار. (2011). حول التربية والتعليم، ط3. دمشق: دار القلم.
-عثمان الخشت. (د.ت). الإسلام والعلم بين الأفغاني ورينان. القاهرة: دار قباء.
- علي عبد المعطي محمد . (2000). المدخل إلى الفلسفة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- عمر التومي الشيباني. (1988). فلسفة التربية الإسلامية. ليبيا: الدار العربية للكتاب.
- قاسم علي قحوان. (2016). إضاءات في أصول التربية، ط1 . عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع.
- مالك بن نبي. (1987). شروط النهضة . سورية، دمشق: دار الفكر.
- محمد أبو زهرة. (د.ت). العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن، الكتاب الثاني. مجمع البحوث الإسلامية.
- محمد بن مكرم بن منظور. (1999). لسان العرب، ج9، ط3. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي.

محمد عمارة. (2009). الإسلام والغرب افتراءات لها تاريخ، ط1. مصر: مركز الإعلام العربي.

محمود حمدي زقزوق. (د.ت). الإسلام في تصورات الغرب. مصر: مكتبة وهبة.

مصطفى يعقوب عبد النبي. (2017). المستشرقون وتعصبهم الفاضح ضد العرب والإسلام. دراسات استشراقية.